حكمة الوزراء

روى عن الرشيد أنه رأى يوماً في داره حزمة خيزران، فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ فقال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين. ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد.

أراد ملك أن يتخلص من وزيره، ففاجأه أمام الحاضرين وقال: سأعمل قرعة؛ أي سأضع ورقتين في وعاء واختر إحداهما إما إعدام أو نصف أملاكي، ووضع في الوعاء ورقتين بهما إعدام (ومن يناقش الملك؟)، وطلب من الوزير أن يخرج إحداهما، وهو يعلم أنه سيخرج ورقة الإعدام؛ لأنهما كذلك الاثنتان، ولكن الوزير كان ذكياً وأخرج إحداهما بسرعة فائقة وأكلها، وقال يا مولاي أنا سحبت إحدى الورقتين فانظر الأخرى وفتحوها فوجدوها إعدام مما يعني أن الأخرى نصف أملاك الملك، وأحرج الملك.

كان لأحد الملوك وزير حكيم، وكان الملك يقربه منه ويصطحبه معه في كل مكان. وكان كلما أصاب الملك ما يكدره قال له الوزير:

«لعله خير» فيهدأ الملك. وفي إحدى المرات قُطع إصبع الملك فقال الوزير: لعله خير. فغضب الملك غضباً شديداً وقال: ما الخير في ذلك؟ وأمر بحبس الوزير. فقال الوزير الحكيم: لعله خير. ومكث الوزير فترة طويلة في السجن.

وفي يوم خرج الملك للصيد وابتعد عن الحراس ليتعقب فريسته، فمرّ على قوم يعبدون صنماً فقبضوا عليه ليقدّموه قرباناً للصنم، ولكنهم تركوه بعد أن اكتشفوا أن قربانهم إصبعه مقطوع، فانطلق الملك فرحاً بعد أن أنقذه الله من الذبح تحت قدم تمثال لا ينفع ولا يضرّ. وأول ما أمر به فور وصوله القصر أن أمر الحراس أن يأتوا بوزيره من السجن، واعتذر له عما صنعه معه، وقال إنه أدرك الآن الخير في قطع إصبعه، وحمد الله تعالى على ذلك.

ولكنه سأله عندما أمرت بسجنك قلت «لعله خير» فما الخير في ذلك؟

فأجابه الوزير أنه لو لم يسجنه.. لَصاحَبَهُ في الصيد فكان سيُقدم قرباناً بدلاً من الملك... فكان في صنع الله كل الخير.

ينقل أن كسرى سخط على بوذرجمهر، وكان وزيراً له، فحبسه في بيت مظلم، وأمر أن يصفّد بالحديد، فبقي أياماً على تلك الحال..

فأرسل كسرى إليه من يسأله عن حاله، فجاء الرسول فوجده

منشرح الصدر مطمئن النفس!.. فقال له: أنت في هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال!..

فقال بوذرجمهر: اصطنعت معجوناً مركباً من أخلاط معينة واستعملتها، وهذا المعجون هو الذي أبقاني على ما ترون..!

قال الرسول: صف لنا هذه الأخلاط، لعلنا ننتفع بها عند البلوى!..

فقال: نعم..

أما الخلط الأول: فالثقة بالله عز وجل.

وأما الثاني: فكل مقدر كائن.

وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتحن.

وأما الرابع: فإذا لم أصبر فماذا أصنع، ولا أعين على نفسي بالجزع.

وأما الخامس: فقد يكون أشد مما أنا فيه.

وأما السادس: فمن ساعة إلى ساعة فرج.

فبلغ ما قاله كسرى، فأطلقه وأعزه.. هذا مع أن كسرى خيّر بوذرجمهر بأن ينتخب في خلال مدة سجنه: طعاماً واحداً، وملبساً واحداً، ومكاناً واحداً، لا يتعداها إلى غيرها..

فاختار من الطعام: الحليب.

ومن الملبس: الفرو.

ومن المكان: السرداب.

فسأله كسرى عن علة هذا الاختيار؟..

فقال بوذر جمهر: أما الحليب فإنه طعام وشراب.. وأما الفرو فلأنه لباس الصيف والشتاء، إن لبُس هذا الجانب كان لباس الصيف، وإن لبس من الجانب الآخر كان لباس الشتاء.. وأما السرداب فلأنه حار في الشتاء وبارد في الصيف.

يحكى أن أحد الملوك قد خرج ذات يوم مع وزيره متنكرين، يطوفان أرجاء المدينة ليروا أحوال الرعية، فقادتهم الخُطا إلى منزل في ظاهر المدينة، فقصدا إليه، ولما قرعا الباب، خرج لهما رجل عجوز دعاهما إلى ضيافته، فأكرمهما وقبل أن يغادره، قال له الملك: «لقد وجدنا عندك الحكمة والوقار، فنرجوا أن تزوّدنا بنصيحة».

فقال الرجل العجوز: «لا تأمن للملوك ولو توّجوك».

فأعطاه الملك وأجزل العطاء ثم طلب نصيحة أخرى.

فقال العجوز: «لا تأمن للنساء ولو عبدوك».

فأعطاه الملك ثانية ثم طلب منه نصيحة ثالثة.

فقال العجوز: «أهلك هم أهلك، ولو صرت على المهلك».

فأعطاه الملك ثم خرج هو والوزير، وفي طريق العودة إلى القصر أبدى الملك استياءه من كلام العجوز وأنكر كل تلك الحكم، وأخذ يسخر منها، وأراد الوزير أن يؤكد للملك صحة ما قاله العجوز، فنزل إلى حديقة القصر، وسرق بلبلاً كان الملك يحبه كثيراً، ثم

أسرع إلى زوجته يطلب منها أن تخبئ البلبل عندها، ولا تخبر به أحداً، وبعد عدة أيام طلب الوزير من زوجته أن تعطيه العقد الذي في عنقها كي يضيف إليه بضع حبات كبيرة من اللؤلؤ، فسُرت بذلك، وأعطته العقد ومرت الأيام، ولم يعد الوزير إلى زوجته العقد، فسألته عنه، فتشاغل عنها، ولم يجبها، فثار غضبها، واتهمته بأنه قدم العقد إلى امرأة أخرى فلم يجب بشيء، مما زاد في نقمتها، وأسرعت زوجة الوزير إلى الملك، لتعطيه البلبل، وتخبره بأن زوجها هو الذي كان قد سرقه، فغضب الملك غضباً شديداً، وأصدر أمراً بإعدام الوزير، ونصبت في وسط المدينة منصة الإعدام، وسيق الوزير مكبلاً بالأغلال، إلى حيث سيشهد الملك إعدام وزيره، وفي الطريق مرّ الوزير بمنزل أبيه وإخوته، فدهشوا لما رأوا، وأعلن والده استعداده لافتداء ابنه بكل ما يملك من أموال، بل أكد أمام الملك أنه مستعد ليفديه بنفسه، وأصرّ الملك على تنفيذ الحكم بالوزير، وقبل أن يرفع الجلاد سيفه، طلب الوزير أن يؤذن له بكلمة يقولها للملك، فأذن له، فأخرج العقد من جيبه، وقال للملك: «ألا تتذكر قول الحكيم: «لا تأمن للملوك ولو توّجوك، ولا للنساء ولو عبدوك، وأهلك هم أهلك ولو صرت على المهلك، وعندئذ أدرك الملك أن الوزير قد فعل ما فعل ليؤكد له صدق تلك الحكم، فعفا عنه، وأعاده إلى مملكته وزيراً مقرّباً».

يقال ـــ إنه كان هناك ملك أمر بتجويع 10 كلاب لكي يضع كل وزير يخطئ معه في السجن مع الكلاب الجائعة.

فقام أحد الوزراء بإعطاء رأي خاطئ فأمر الملك بأن يُرْمى الوزير للكلاب الجائعة.

فقال له الوزير: أنا خدمتك 10 سنوات وتعمل بي هكذا، أرجو أن تمهلني 10 أيام على الأقل.

فقال له الملك ليكن لك ذلك، فذهب الوزير إلى حارس الكلاب، فقال له أريد أن أخدم الكلاب فقط لمدة 10 أيام، فقال له الحارس: وماذا تستفيد.

فقال له الوزير: سوف أخبرك بالأمر مستقبلاً، فقال له الحارس: لك ذلك. فقام الوزير بالاعتناء بالكلاب وإطعامهم وتغسيلهم، وتوفير جميع سبل الراحة لهم.

وبعد مرور 10 أيام جاء تنفيذ الحكم بالوزير وزُجّ به في السجن مع الكلاب. والملك ينظر إليه والحاشية، فاستغرب الملك مما رآه وهو أن الكلاب الجائعة راحت تبصبص تحت قدميه، ولم تؤذيه.

فقال له الملك: ماذا فعلت للكلاب؟

فقال له الوزير: خدمت هذه الكلاب 10 أيام فلم تَنْسَ الكلاب هذه الخدمة. وأنت خدمتك 10 سنوات فنسيت كل ذلك.

حينها طأطأ الملك رأسه وأمر بالإعفاء عنه.

حكمة القضـاة

تحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبي يوسف القاضي في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب؟

فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب، فأمر الرشيد بإحضارهما وقُدِّما بين يدي يوسف، فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة، حتى نصف الجامين، ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته.

تنازع شخصان وذهبا إلى جحا – وكان قاضيا – فقال المدعي: لقد كان هذا الرجل يحمل حملاً ثقيلاً، فوقع على الأرض، فطلب مني أن أعاونه، فسألته عن الأجر الذي يدفعه لي بدل مساعدتي له، فقال (لا شيء) فرضيت بها وحملت حمله. وهاأنذا أريد أن يدفع لي اللا شيء. فقال جحا: دعواك صحيحه يا بني، اقترب مني وارفع هذا الكتاب. ولما رفعه قال له جحا: ماذا وجدت تحته؟ قال: لا شيء. قال جحا: خذه وانصرف.

أراد الربيع، وزير الخليفة العباسي المهدي، أن يؤذي القاضي شُريك، المشهور بذكائه وعلمه وجرأته أيضاً، فقال الوزير للقاضي: بلغني أنك خنت أمير المؤمنين، فقال شريك: لا تقل ذلك، لو فعلنا لأتاك نصيبك.

يروى أن عبد الملك بن مروان زار البصرة قبل أن يلي الخلافة فرأى إياساً وكان يومئذ فتى يافعاً لم يطر شاربه بعد، ورأى خلفه أربعة من القراء من ذوي اللحى وهو يتقدمهم، فقال عبد الملك أف لأصحاب هذه اللحى، أما فيهم شيخ يتقدمهم فقدموا هذا الغلام! ثم التفت إلى إياس وقال: كم سنك يا فتى؟ فقال إياس سني -أطال الله بقاء الأمير- كسن أسامة بن زيد حين ولاه رسول الله ﷺ جيشاً فيه أبو بكر وعمر. فقال له عبد الملك: تقدم يا فتى، تقدم بارك الله فيك، فمثلك لا يمكن إلا أن يكون في المقدمة.

طلب أحد الخلفاء من رجاله أن يحضروا له الفقيه إياس بن معاوية، فلما حضر الفقيه قال له الخليفة: إني أريد منك أن تتولى منصب القضاء. فرفض الفقيه هذا المنصب، وقال: إني لا أصلح للقضاء. وكان هذا الجواب مفاجأة للخليفة، فقال له غاضباً: أنت غير صادق. فرد الفقيه على الفور: إذن فقد حكمت عليَّ بأني لا أصلح. فسأله الخليفة: كيف ذلك؟ فأجاب الفقيه:

لأني لو كنت كاذباً- كما تقول- فأنا لا أصلح للقضاء، وإن كنت صادقا فقد أخبرتك أني لا أصلح للقضاء.

ولي يحيى بن أكثم قضاة البصرة وسنّه عشرون أو نحوها، فقال له أحدهم: كم سنّ القاضي؟

فعلم أنه قد استصغره فقال له: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجّه به النبي ﷺ قاضياً على أهل مكّة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجّه به النبي ﷺ قاضياً على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجّه به عمر بن الخطّاب قاضياً على أهل البصرة.

قال رجل لإياس بن معاوية وكان قاضي البصرة، وكان يُضرب المثل بذكائه وسُرعة بديهته: لو أكلت التمر تضربني؟ قال: لا.

قال: لو شربت قداراً من الماء تضربني؟ قال: لا.

قال: فشراب التمر (النبيذ) أخلاط منها، فكيف يكون حراماً؟

فقال إياس: لو رميتك بالتراب أيوجعك؟ قال: لا.

قال: لو صببت عليك قداراً من الماء أينكسر عضو منك؟ قال: لا.

قال: لو صنعت من الماء والتراب طوباً فجف في الشمس فضرب به رأسك كيف يكون؟ قال: ينكسر الرأس.

قال إياس: ذلك مثل هذا.

قيل لإياس بن معاوية القاضي: إن فيك عيوباً: دمامة الشكل، وإعجابك بقولك، وعجلتك بالحكم. فقال: أما الدمامة فليس أمرها لي. وأما الإعجاب بالقول أفليس يعجبكم ما أقول؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحق بالإعجاب بقولي، وأما العجلة بالحكم فكم هذه؟ ومد أصابع يده. قالوا: خمس. فقال أعجلتم بالجواب ولم تعدوها إصبعاً إصبعاً. قالوا: كيف نعد ما نعلمه؟ فقال: وأنا كيف أؤخر حكم ما أعلمه؟

كان الوزير علي بن عيسى متزمتاً متخشناً. وكان يحب أن يبين فضله على كل أحد. دخل يوماً أبو عمرو القاضي، وعلى أبي عمر قميص فاخر. فأراد الوزير أن يخجله، فقال له: يا أبا عمر، بكم اشتريت هذا القميص؟ فقال: بمائتي دينار.

فقال الوزير: ولكني اشتريت هذه الدراعة وهذا القميص الذي تحتها بعشرين ديناراً. فقال له أبو عمرو مسرعاً كأنه قد أعدّ له الجواب: الوزير أعزّه الله يُجمل الثياب، ولا يحتاج إلى المبالغة فيها، والكل يعلم أنه يدع هذا عن قدرة، ونحن نتجمل بالثياب فنحتاج إلى المبالغة فيها، فكأنما ألقم الوزير حجراً فسكت عنه.

قدم بعض التجار من خراسان ليحج، فتأهب للحج وبقي معه ألف دينار لا يحتاج إليها، فقال: إن حملتها خاطرت بها، وإن أودعتها خفت جحد المودع. فمضى إلى الصحراء، فرأى شجرة خروع،

فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد، ثم خرج إلى الحج وعاد، فحفر المكان فلم يجد شيئاً، فجعل يبكي ويلطم وجهه، فإذا سئل عن حاله قال: الأرض سرقت مالي.

فلما كثر ذلك منه قيل له: لو قصدت عضد الدولة فإن له فطنة.

فقال: أو يعلم الغيب؟ فقيل له: لا بأس بقصده.

فأخبره بقصّته، فجمع الأطباء وقال لهم: هل داويتم في هذه السنة أحداً بعروق الخروع؟

فقال أحدهم: أنا داويت فلاناً وهو من خواصّك.

فقال: عليّ به.

فجاء فقال له: هل تداويت هذه السنة بعروق الخروع؟

قال: نعم.

قال: من جاءك به؟

قال: فلان الفرّاش.

قال: عليّ به.

فلما جاء قال: من أين أخذت عروق الخروع؟

فقال: من المكان الفلاني.

فقال: اذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذت منه.

فذهب معه بصاحب المال إلى تلك الشجرة، وقال: من هذه الشجرة أخذت.

فقال الرجل: هاهنا والله تركت مالي، فرجع إلى عضد الدولة

فأخبره، فقال للفرّاش: هلمّ بالمال، فتلكأ، فأوعده وهدّده فأحضر المال.

تخاصم إياس بن معاوية في أيام صباه مع عجوزٍ لأجل حقّ له عنده، فتحاكم وإياه إلى قاضي دمشق في زمن خلافة عبد الملك بن مروان ..

فقال له القاضي: إنه شيخ وأنت شاب صغير، فلا تساوه في الكلام؛ أي اتركه يتكلم بما يريد، ولا تقاطعه احتراما لكبر سنّه..

فأجابه إياس: إن كان كبيراً فالحقّ أكبر منه.

فقال له القاضي: اسكُت.

قال إياس: ومن يتكلّم بحُجّتي إذا سكتُّ أنا؟

فقال القاضي: ما أحسبك تنطق بحقّ في مجلسي هذا حتى تقوم، أي أن كل ما ستقوله أمامي فهو باطل.

فقال إياس: أشهد أن لا إله إلا الله، وبهذه العبارة قام بإحراج القاضي فيما قاله له؛ لأنها مقولة حقّ، ولا يمكن لأيّ أحد أن ينكرها أو يشكّك فيها.

فقال له القاضي: ما أظنك إلاّ ظالماً له.

فقال إياس: ما على ظنّ القاضي خرجت من منزلي.

ويقال إنه رفع صاحب الخبر هذا الخبر إلى الخليفة، فعزل القاضي وولى إياساً مكانه.

حدّث الشعبي قال: شهدت شريحاً وقد جاءته امرأة تخاصم رجلاً، فأرسلت عينيها فبكت.

فقلت: يا أبا أميّة، ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة.

فقال: يا شعبي، إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون .

كان المطلب بن محمد الحنظلي على قضاء مكة، وكان عنده امرأة قد مات عندها أربعة أزواج فمرض مرض الموت، فجلست عند رأسه تبكي، وقالت: إلى من توصي بي؟

قال: إلى السادس الشقي.

مر إياس ليلة بماء فقال: أسمع صوت كلب غريب. فقيل له: كيف عرفته؟

قال: بخضوع صوته وشدّة نباح الآخرين.

فسألوا، فإذا كلب غريب والكلاب تنبحه.